صلات علمية
بين مصر والشام
في النصف الاول من القرن الثامن الهجري

للأستاذ محمد عبد الغني حسن

(تتمة ما نشر في العدد الماضي)

وما مناظرات ابن تيمية في مصر والشام إلا صورة مما كان يحدث في هذا العصر بين العلماء . وكانت الشغل الشاغل لهم ، وكان أغلب القائمين بها من علماء السنة الذين وقفوا للمبتدعين بالمرصاد . كما كان بيت ابن تيمية هو البيت الديني الذي يحمل لواء أهل السنة ويتولى الرد على أهل البدعة . ويعاونه في ذلك أخواه شرف الدين وزين الدين . وقد كان لهما مناظرة في مجلس سلار نائب السلطان الناصر . فظهر شرف الدين بالحجة على مناظرهما ابن مخلوف المالكي . وكان الكلام هذه المرة في مسألة العرش وكلام الله وفي مسألة النزول .

ولقد حدثت بسبب هذه المناظرات فتن كثيرة في مصر والشام ، واهتاجت لها الخواطر الساكنة . وانقسم الناس شيعاً كل واحدة تحارب غيرها ، وسجن كثير من العلماء لمجرد القول عليهم أو إطلاق الألسنة فيهم . وخاصة في دمشق التي وقع فيها خبط كثير وتشويش . فنادى نائب السلطنة المصرية في الشام ألا يتكلم أحد في العقائد . ومن عاد حل ماله ودمه وصودرت داره وحانوته ؛ فهدأت الأحوال وسكنت الأمور

ولم يكن هذا الهدوء إلا لأجل قصير ؛ فقد عادت خصومة العلماء في صورة اتهامات توجه إلى الأبرياء وغير الأبرياء . وهي اتهامات كان أقل ما عليها من المجازاة أن يعزَّر فيها المتهم تعزيراً عنيفاً ، ويطاف به في البلدة على حال منكرة ؛ كما حدث سنة ٧١٢ لابن زهرة المغربي الذي اتهمه بعض العلماء والصالحين باستهانته بالمصحف وخوضه في أهل العلم ، فطيف به في دمشق وعذب وحبس

والحق أن « تنكز » نائب السلطنة المصرية في الشام كان دائم القلق مما يحدث بين العلماء وأهل المذاهب والعقائد . وكان لا ينظر بعين الرضى إلى أمثال هذه الحركات التي تجعل بأس المسلمين واهيا . كان لا يريد إلا الإصلاح ما استطاع بين المختلفين ؛ فحينما حدثت الفتنة سنة ٧١٦ بين الحنابلة والشافعية بسبب العقائد أصلح بينهم في مجلس حافل بدار نيابة السلطنة وخرج المتنازعون على خير حال من التفاهم

* * *

وكانت تقوم إلى جانب العلماء والمدرسين وظيفة الخطيب . وكانت الشهرة في المساجد الصغيرة كفيلة بإيصال الخطباء إلى المساجد الكبيرة ، كالجامع الأموي والأزهر ومساجد المدن الكبرى في الشام ومصر . وكان لكل بلدة خطيب مشهور بجانب عدد آخر من الخطباء المغمورين : فاشتهر بالخطابة في الجامع الأموي بدمشق الشيخ زين الدين الفاروقي وتولاها بعد وفاته شرف الدين القزاري . واشتهر بالخطابة في بعلبك ضياء الدين ابن عقيل وأبوه جمال الدين ، وقد توليا الخطابة في هذه البلدة ستين عاما . واشتهر بالخطابة في مصر بهاء الدين السكري وشمس الدين الجزري خطيب جامع ابن طولون ونور الدين القسطلاني خطيب جامع عمرو بن العاص

ولم يكن للخطيب أن يقضي بين الناس أو يفصل في الخصومات فذلك شأن القاضي الذي يعينه قاضي القضاة . ولكن حدث أن خطباء انتدبوا لمهمة القضاء ، كما حدث أن بعض القضاة انتدبوا للخطابة . فنرى في حوادث سنة ٧٠٦ هـ في تاريخ ابن كثير أن سليمان بن هلال بن شبل الخطيب انتدب للقضاء بدلاً من القاضي جلال الدين القزويني الذي كلف بالخطابة عوضاً من القضاء

وكان بعض الخطباء يتولون التدريس ، كما أن بعض القضاة يجمعون بين الحكم والتدريس كالقاضي علي بن صفي الدين الحنفي الذي تولى قضاء الحنفية في دمشق مع ما بيده من التدريس

كان منتصف القرن الثامن الهجري مملوءاً بالأحداث الجسام

كما سلف القول ؛ فالتتار على أسوار دمشق ، وقبائل العرب فى مصر العليا شقت عصا الطاعة على الملك الناصر فى مدة سلطنته الثانية ، والصليبيون قدموا باتفاق أمير قبرص لغزو دمياط . والمماليك منقسمون على أنفسهم ؛ ففريق مع السلطان الناصر المتخلى عن عرشه ، وفريق آخر مع الأمير بيبرس ، وفى وسط هذه التيارات القوية نجد العلماء يحرضون على مقاتلة التتار ، ويدعون لمحاربة الصليبيين ، ويقيمون المناظرات الدينية عوداً إلى عهود الجدل والكلام ؛ ولكنهم مع ذلك كله لا يخوضون فى حديث السياسة الداخلية ، ولا يتكلمون فيمن تولى وفيمن عزل ؛ فذلك ليس من شأنهم ، فإذا نزل أحدهم ميدان السياسة عرض نفسه للعزل كما حدث لسليمان بن حمزة قاضى الحنابلة بدمشق الذى عزل بسبب تكلمه فى نزول الملك الناصر عن عرشه مكرهاً لا مخيراً ، وكما حدث للشيخ كريم الدين بن الجسين الأيكى شيخ الشيوخ بمصر الذى كان على صلة بأمراء المماليك ، وكان له هوى سياسى معين ، فعزل عن منصبه الرفيع وعين بدلاً منه ابن جماعة المشهور

ولم تكن المرأة المصرية أو الشامية جملة بمعزل عن مجالس العلماء فى ذلك العصر ؛ بل كان بعض النساء يترددن على هذه المجالس ويستمعن إلى الدروس ويناقشن فى المسائل . فالسيدة فاطمة بنت عباس البغدادية كانت تحضر مجلس ابن تيمية ، وكان هو يستعد لها بسبب كثرة مسائلها وحسن أسئلتها وسرعة فهمها . ويذكر ابن كثير المؤرخ أنه سمع ابن تيمية ـ وكان معاصراً له ـ يثنى عليها ويصفها بالفضيلة والعلم . والشيخة الصالحة ست الوزراء بنت عمر بن أسعد كانت تروى صحيح البخارى وغيره من كتب الحديث . وكانت تحدث الرجال بحديث الرسول عليه السلام

ولا شك أن ابن تيمية كان أشهر العلماء بين مصر والشام فى ذلك العصر ، فقد شغل الدنيا كلها بمسائله ومناظراته ومجالسه وقد جمع إلى ذكاء العقل وسرعة الفهم والشجاعة فى الحق وعدم الخشية فى سبيل الله . وله مع قازان ملك التتار مواقف مشهورة ذكرها الشيخ محمد البالسى زميله فى وفد العلماء إلى قازان . فقد قام ابن تيمية يهدر كالسيل لم يخش أحداً ولم يجامل سلطاناً ولم يتملق حاكماً . ولكن الله أجرى الصراحة على لسانه ؛ وأودع الشجاعة فى قلبه ، فإذا به يخاطب ملك التتار قائلاً : أنت عاهدت فغدرت ، وقلت فما وفيت

ولد هذا الإمام بحرّان ونشأ وتعلم بدمشق ، ودرس بغزة وأوذى أولاً وأكرم أخيراً فى مصر ، وتوفى بقلعة دمشق بالقاعة التى كان محبوساً فيها أيام محنته الأولى بعد أن أكد صلات العلم والدين بين القطرين الشقيقين فى الربع الأول من القرن الثامن الهجرى .

محمد عبد الغنى حسن

الكتب الآتية تطلب من :
مكتبة الجامعة ـ بشارع محمد على بالقاهرة

م	
٥	التربية والتدريس واتصالها بعلم النفس
٢٠	صهاريج اللؤلؤ للبكرى
٤٠	تهذيب الكامل للمبرد جزآن
٥	تحت ظلال النخيل لمحمود رمزى نظيم (أزجال)
٥٠	علم الدولة ٤ أجزاء
٨	الأدب والدين عند قدماء المصريين
٣	قصة ملكة سبأ مع سيدنا سليمان
٧	كل شىء هادى فى الميدان الغربى
٢٠	محاضرات إسلامية للجديلى بك
١٥	محاضرات فى النصرانية لأبو زهرة بك
٢٥	الإسلام والتجديد لعباس محمود
١٥	وحى الموت لقراعة
٨	نعيم الجنة »
١٢٠	قاموس الدكتور سعادة انجليزى عربى مجلد جلد
٢٠٠	معجم الأدباء ٢٠ جزء